البارىء ـ المصور

من أسماء الله الحسنى ، « البارىء المصور » ، إذ حديثنا في الصفحات السابقة عن اسم الخالق الذي ورد في القرآن الكريم مقترناً مع اسم البارىء والمصور ، فقد دَرَجَت الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى على أن تشرح الأسماء الثلاثة معاً في سياق واحد ، وقبل أن أنتقل إلى اسم الله البارىء المصور لابد من وقفة قصيرة مع اسم الخالق ، فتتساءل كيف يقول الله عز وجل :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

وكيف يقول في آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] .

في الآية الأولى يُثبت الله عز وجل أن هناك خالقين كثيرين ، لكن الله أحسنهم ، وفي الآية الثانية يقول : هل من خالق غير الله ؟ هو ينفي عن طريق الاستفهام الإنكاري أن يكون في الكون خالق غير الله .

فالإنسان حينما يقرأ القرآن قراءة أولية ، ولا يتعمّق في العلم ولا يسأل أهلَ الذِّكر ، وحينما يقف عند آية من الآيات المتشابهة ولا يحاول أن يسأل عنها فقد يشعر أن في القرآن تناقضاً ، ولذلك

فهؤلاء الغربيّون أو المستشرقون الذين درسوا ما في الشرق من أديان ومن ثقافات ، هؤلاء قالوا : إن في القرآن تناقضاً ، وهذه نظرة ساذجة أولية لا تقف على قدميها ، فالعلماء المحققون قالوا : إذا قال الله عز وجل : تبارك الله أحسن الخالقين أي : إنّ إنساناً أخذ مواد أولية من الأرض وصنع منها شيئاً ، يسمى خالقاً مجازاً ، فتعريفه كما يلي : الإنسان خالق إذ يصنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق ، فإذا قلت : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ، فهؤلاء الذين يصنعون نماذج في بعض محال الألبسة ، ويضطرون إلى صنع تماثيل يضعون عليها الألبسة ، فهذا التمثال إن كان من شمع أو من جِبس أو من أية مادة ، اجعله إلى جانب إنسان من لحم ودم ولاحظ الفرق بينهما ، فهذا إنسان فيه حياة وله فكر وقلب ومشاعر وهو ذكي ، يستنبط ويحاكم ، ويفكر ، ويتفاعل ، ويغضب ، ويخاف ويرجو ، وله أوعية وشرايين وأعصاب ، وعضلات ودماغ وجهاز عصبي ، فإذا وازنت بين من يصنع هذا التمثال كي توضع عليه الألبسة ، وبين من يخلق هذا الإنسان من لحم ودم ، فقُل : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ .

وإذا رأيت وردةً طبيعية تفوح برائحة زكية ، فأنت تشعر أن قلبك قد هفا إليها ، وإن باقة ورد تُضفي على المكان أنساً وفرحاً وسروراً ، وإذا دُعي الإنسان إلى عقد قِران رأى الأزهار ، وهذه النباتات الطيبة الرائحة بألوان مختلفة دقيقة جداً ، ولا تعرفون قيمة التلوين إلا من خلال صنع الحكيم . . فالفراشات والأزهار هي الأساتذة لمهندسي التلوين ، فلو نظرت إلى مركبة حديثة جداً ، فإنك تجد ألوانها مقتبسة إمّا من زهرة أو من فراشة ، يقول العوام هذا أصفر غير جميل وهذا لون زهر جميل جداً ، لكن يمكن تدريج اللون الواحد إلى ثمانمئة

ألف درجة والعين البشرية تفرّق بين كل درجتين ، وإذا وضعت في بيتك ورداً صناعياً ، فبعد أسبوع تضيق ذرعاً به ، وتجد الإنسان بعد فترة أمسك بهذا الورد ووضعه في سلة المهملات ، إذ لا يحتمله ، على الرغم من منظره الجميل وحجمه الكبير وألوانه الزاهية ، فالفرقُ كبيرٌ بين الورد الطبيعي والورد الصناعي ، وانظر إلى عين صُنعت لتكون وسيلة إيضاح ، وإلى العين البشرية ، ففيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، فالعصب البصري وحده مؤلف من تسعمئة ألف عصب ، فوازن بين آلة تصوير والعين ، فالعين الواحدة في الثانية تلتقط عشرات الصور ولابد أن تمحى الصورة الأولى لتأتي مكانها الصورة التالية ، ولو أن الصورة تنطبع في العين ، وتبقى فالرؤية تستحيل كما أنها ترى الحركات والسكنات ، حتى إن الذي اخترع السينما ، قامت لديه على مجموعة صور تُعرض تِباعاً في زمن قصير بحيث تتوهم أنها متحركة ، لا ، إنما هي صور ثابتة وجامدة ، فكذلك العين لابد أن تنطبع هذه الصورة على الشبكية أولاً ، وبعد ذلك تُمحى وتأتي الصورة التي تليها وهناك عتبة للرؤية ، وهذه العتبة تُريكَ الأشياء متحركة ، فإذا وازنت بين العين وآلة تصوير ، وبين وردة طبيعية ووردة صناعية ، وتمثال من شمع وإنسان حقيقي ، فمجال الموازنة كبير جداً ، فإذا أردت أن ترى صنعة الإنسان دقق في محرك يخرج كمية من الماء له صوت يصم الآذان ، أما حينما يهطل المطر مدراراً بكميات كبيرة جداً فلا صوت ولا صخب ، قال ربنا عز وجل :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فالجبال تمر في سرعة السحاب بلا صخب ولا ضجيج ، فإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

إذاً فلا غرابة أن يسمى الإنسان خالقاً لأنه صنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق ، فإذا قلت : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ تفهم من هذه الآية أنه إذا عُزي الخلق إلى الله فالمعنى أن يخلق الله شيئاً من لا شيء على غير مثال سابق ، وشتان بين الخلق على غير مثال سابق ومن دأبه التقليد لمثال سبق .

فليس في الكون كله إلا الله يستطيع أن يصنع شيئاً دون شيء على غَير مثال سابق ، أما إذا قلت : إن الإنسان يخلق شيئاً فتجد حقيقته واضحة في قول الله عز وجل :

﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

أجل ؛ كهيئة الطير وليس طيراً ، ومن طين ، لا من لحم ودم وروح ، إذاً لا تناقض بين الآيتين ، إذ قال تعالى في الأولى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ بينما قال تعالى في الثانية : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ .

ولكن الشيء الذي يلفت النظر ، وسبق لي أنْ أوضحته أنّ في القرآن الكريم كلمات إذا جاءت مجتمعة فلها معنى ، وإذا جاءت منفصلة بعضها عن بعض فلها معنى آخر ، مثلاً : الفقراء والمساكين ، هاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا ، وإذا تفرقتا اجتمعتا ، أي إذا ذكر الله في القرآن كلمة المساكين فقط ، فالمقصود عندئذٍ : الفقراء والمساكين ، أما إذا ذكرت كلمة الفقراء والمساكين معاً فالفقراء صنف

والمساكين صنف ، وبناءً عليه إذا وردت كلمة خالق وحدها معزوّة إلى الله عز وجل فهو الذي يوجد من العدم على غير مثال سابق ، أما إذا قال الله عز وجل : هو الله الخالق البارىء المصور ، صار « الخلق » هو التقدير ، و« البَرء » هو الإيجاد من عدم و« التصوير » إعطاء الصورة .

وبعد ، فقد يسأل سائل : ما علاقتنا بهذه الأبحاث المتعلقة بأسماء الله الحسنى ؟ إنه وقت مناسب جداً لأن أجيب عن هذا السؤال ، فالإجابة : أنك إذا عرفت أن الله خالق فقط ، فهذا تعرفه العامة كذلك إذ لو سألت عامّةَ الناس : مَن خلق الكون ؟ لقالوا : الله ، ولكن لو سألتهم : ماذا تعرفون عن الله ؟ لوجموا ، وهذا ما لابد من بحثه ، فأن تعزو خلق الكون إلى الله ، هذه قضية أقرَّ بها إبليس ، والدليل قال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] .

فاعترف إبليس أن الله رب وعزيز ، ولكن الاعتراف والإقرار لا يكفي ، بل المهم هو : ماذا تعرف عن الله عز وجل ؟ وبذلك يظهر إيمانك بالله ودرجة إيمانك به ، ولدينا مقياس دقيق وصائب ، فهذا الإيمان إذا حملك على طاعة الله فهو كاف كي تنجو به من عذاب الله ، أجل إذا حَمَلَكَ إيمانُكَ على طاعة الله فنَمْ قرير العين واطمئِن لأنه ينجيك ، أما إذا كان بحجمٍ لا يكفي أن يحمِلَكَ على طاعةِ الله فذلك الخسران المبين ، أقول لكم ما روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ : لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ

بِاللَّيْلِ وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ » وَروي عن رَسُول اللهِ ﷺ : « إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللهِ » [الترمذي من حديث أبي هريرة] وَروي عن رَسُولِ اللهِ ﷺ : « جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : « أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا الله » . [أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة] .

إذاً ، إذا اكتفيت بمعرفة الله فالطريق أمامك لازال طويلاً ، وليس المهم المعرفة المهم مردودها ، والمردود هو الطاعة لله عز وجل ، ولذلك قال بعض العلماء في قوله تعالىٰ :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ما الذي يجعله يصعد إلى الله عز وجل ؟ العمل الصالح الذي يرافقه ، فلو أن الكلم الطيب خلا من عمل صالح لما صعد إلى الله عز وجل .

إذاً : فالذي يرفعك هو عملك الصالح ، وعملك الصالح أساسه حجم معرفتك ، فمن الممكن أن نُعطي الإيمان كما يقولون حجماً مادياً لنتبيّن الحقيقة ، فلو وضعنا الإيمان في كفة ، ووضعنا الشهوات في كفة ورجحت كفة الشهوات فالإيمان لا يكفي ، والصِّراع قائم لا محالة .

وربنا عز وجل حينما وصف النبي عليه الصلاة والسلام قال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

فالنبي متمكّن من أخلاقه ، وقد انعدم أي صراع لديه ، أما إذا كان حجم إيمانك بحجم شهواتك ، أو كان وزن الإيمان الضاغط عليك كوزن شهواتك الضاغطة عليك ، أي : كان الوزنان متساويين

فقد دخلت في الصِّراع بينهما حتماً ، أما إذا كان حجم إيمانك أكبر فسوف تنجو من الصِّراع ، وتكون من الفائزين ، وتقترب من معنى التمكن من الخُلُق العظيم .

وإذا كان حجم الشهوات أكبر فقد ولج المرء باب مدخل ثانٍ ، ونبدأ عندئذٍ بالسؤال التالي : لماذا أودع الله فينا الشهوات ؟ . . فلنتصوّر أولاً أن الإنسان ليس فيه شهوات ، بل عنده عقل فقط ، وعقله يأمره أن يتجه إلى الله ، فأين العبودية لله ، لا تبدو عبوديتك ولا حبك ولا إخلاصك ولا طاعتك ، بل كل حقيقة الحياة الدنيا التي أساسها الابتلاء لا تظهر ، إذا ليس لدى المرء شيء من الشهوات فلِحكمةٍ أرادها الله عز وجل ، أودع فيك أيها الإنسان شهوةً وأعطاكَ عقلاً ، فالعقل له نِداء والشهوة لها نِداء ، فإذا غَلَبَ نِداء الشهوة فسينطبق على هذا الإنسان قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

[المؤمنون : ٩٩ـ١٠٨] .

أي : غلبت علينا شهوتنا ، التي أشقتنا ، فسمَّاها بنتائجها ، غَلَبَت علينا شهواتنا التي كانت سبب شقائنا ، وكنا قوماً ضالين : ﴿ رَبَّنَآ

أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٩ـ١١١] .

إذاً لابد من معرفة أن في الإنسان دافعاً شهوانياً ووازعاً عقلياً ، فإذا غَلَبَ العقل على الشهوة نجا ، وإذا غَلَبَت الشهوة على العقل هَلَك ولِحِكمَةٍ أرادها الله أنت مُمتحنٌ دائماً ، مُمتحنٌ بين أن تنام وأن تُصلي ، فالعقل المساق بالشرع يقول لك : قم فصلِّ ، والجسم يقول : اخلُد إلى الفراش فأنتَ متعب ، تسمع أذان الفجر ، فيقول لك العقل المقاد بالشرع : قُم فصلِّ هذا وقت الصلاة والصلاة خير من النوم ، ويقول لك الجسد : ابقَ مستريحاً فقد سهرت طويلاً ، وأنت إنسان مُتعب ، وعليك أن تقوم إلى عملك نشيطاً ، فتصلي قضاءً ، لاحظ نفسك دائماً فأنت بين نداء الشهوة ونداء العقل ، فإذا غَلَبَ عقلُكَ الخاضع لشرع الله نجوت وسَعِدت ، وإذا غلبت شهوتك أهلكت نفسك وشقيت .

لذلك هذا ماقاله الإمام رضي الله عنه « **رُكِّب المَلَكُ من عقل بلا شهوة ورُكب الحيوانُ من شهوة بلا عقل ، ورُكِّب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان** » .

وما تراه عيناك في الدنيا من انحراف الناس وسقوطهم في مهاوي الرذيلة وانغماسهم في الملذّات المُحرّمة ، إنما هي معركة انتصرت فيها الشهوة :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات : ٤٠ـ٤١] .

فلماذا يجب أن تتعرف على أسماء الله الحسنى ؟ كي يكون أمر الله عز وجل عظيماً مستمداً من عظمة الله ، لاحظ نفسك لو كنت في ثُكنة ، فجاءك أمر من عريف ، فالأمر له وقع عندك ، لو جاء من عريف أول لكان له وقع آخر ، وكلما ارتفعت الرتبة كان وقع الأمر أشد ، فلو جاءك أمر من قائد الجيش لبادرت إلى التطبيق خوف العقاب والمسؤولية ، فإذاً المشكلة أن أمر الله بين الناس مبذول ، والقرآن موجود والعلماء يشرحون كل أمر ، فلماذا يعصي الإنسان الله عز وجل ؟ لأنه لا يعرف حقيقة الآمر ، فلو عرفه لَطَبّقَ الأمر ؛ فإذا عرفنا أسماء الله الحسنى وعرفنا عظمة الله عز وجل عندئذ يعظُم عِندَنا أمرُه ، وإذا عظّمنا أمره بادرنا إلى تطبيقه ، فلذلك : أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ .

وحينما نتلو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

إذاً لماذا تعبدونه ؟ لأنه الذي خلقكم ، وهو سبحانه خالق ورب ومسير ، فيجب أن تؤمن أنه خالق ورب ومسيّر ويجب أن تؤمن أنه واحدٌ في خلقه ، واحدٌ في ربوبيته ، واحدٌ في تسييره ، فوحدانية الخلق ووحدانية الربوبية ، ووحدانية التسيير ، هذه هي التي إذا أيقنت بها وعملت لتحقيقها وبمقتضى ما أمرك هذا الخالق نجوت وارتقيت .

وبالمناسبة ، ففهم الاسم شيء ، وأن تعيشه شيء آخر ، أي : إذا فهمت أن الله هو الخالق بمعنى أنه خلق الأشياء من غير شيء على غير مثال سابق ، فقد تنطلق في الحياة مؤمناً بأن كل ما يجري من فعله وبإرادته .

وأسماء الله الحسنى منها ما يكون على صيغ مبالغة اسم الفاعل فتعني الكثرة النوعية والعددية ، لكنك إذا انطلقت في الحياة العملية ، ورأيت زيداً وعُبيداً ، وحوادث وأفعالاً ، ونسيت أن الله هو الذي يخلق كل هذا ، ويفعله ، وتجري به إرادته ، فعندئذٍ نقول لك : أنت فهمت معنى الخالق ، ولكن لم تعش هذا الاسم ولم تفكر به ، وبعد فإن السعادة الكبرى الحقيقية ، ليست في فهم تعريفات هذه الأسماء ، ولكن في أن تعيشها ، ولا يمكن لك ذلك إلا إذا اجتهدت وجاهدت نفسك وهواها ، وفي ممارسة العمل الصالح وبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس ، وعندئذ تُقبِل على الله عز وجل ، وإذا أَقبلت عليه فهو يلقي في قلبك المعرفة والسكينة والطمأنينة ، وعندئذ ترى الله في كل شيء .

لا أريد أن يبقى الدرس كما يقولون أكاديمياً ، أي : معلومات وتعريفات أملأ بها صفحات الكتاب ، بل أريد أن يعيش أحدنا هذه الأسماء ، وهذا ينقلنا إلى أنَّ المعلم يختلف عن المربي ، فالمعلم إنسان يلقي على الناس حقائق ، وأدلة ، ومعلومات منظمة ، ومبوبة ، ومرتبة ، ومصنفة مع أدلة قطعية ، ونقلية ، وعقلية ، وواقعية ، وفطرية ، والبحث منظم ومبوّب ، ومبرمج ، فهو والله موضوع لطيف ، ولكن الذي يسعى إلى أن يصطبغ بِصِبغة هذا العلم ، والذي

يسعى ؛ ليكون في مستوى هذه الأسماء ؛ وأن تمتزج بها نفسه لا أن يفهم تعريفاتها فقط ، هو المربي ، فأنت أيها القارىء الكريم حاول إذا علّمت الناس أن تكون مربياً ؛ لأن كل مربٍّ هو في الأصل معلم ، لكن المعلم وحده لا يكفي لملء فراغ النفوس والأفهام ، فالكلمة الأخيرة إذاً ترتكز حول اسم الخالق بين أن تفهم تعريفه النظري ، أو أن تفهم هذا الاسم ، وأن تعيشه مدى الحياة .

لقد ضربت على هذا مثلاً ، مفاده أن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

وهذا أخ مستقيم على أمر الله ، وله صديق غارق في معصية الله ، لكن هذا الصديق ذو بحبوحة كبيرة ، ويغبطه صديقه المستقيم على ماله ورخائه وصحته الجيدة ، ولكن المستقيم يعاني من كذا وكذا ، ويذكره إخوة له صادقون معه : أنت مستقيم وهو غير مستقيم ، وتقول : هنيئاً له !! ، فإذاً هذا وإن قرأ هذه الآية مرات ومرات : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، ولم يعِش مفهومها ، ولا تأثر بمعناها ، فما فهم منها شيئاً .

إن الفرق كبير جداً بين أن تفهم أسماء الله الحسنى بحدودها وتعريفاتها ، والفرق بينها وبعض الأدلة وأقوال العلماء فيها ، وبين أن تعيش هذه الأسماء ، فإذا تأملت الكون وعرفت الله عز وجل وبذلت جهداً كبيراً في طاعته ، وفي التقرّب إليه فقد عاد عليك ذلك بالخير الكثير ، وهو أنَّ الله يملأ قلبك غنى ، ونفسك بصيرةً ، وترى عندئذٍ ما لا يراه الآخرون ، وتسمع ما لا يسمعون ، فهذا هو التمييز ، فإذا أردنا أن نُقرر حقيقة ، وهي أن هذه الأسماء الحسنى ينبغي ألا نكتفي

بفهم مدلولاتها وحدودها ، وأبعادها وتعريفاتها وما تعنيه في المعاني العامة والخاصة ، ولكن ينبغي أن نعيشها ونمتزج بها .

ولابد من أن يكون هناك اتصال بالله عز وجل ، حتى تعيش هذه الأسماء وحتى تشعر أنك مع الله دائماً ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟! هذا الذي قاله الإمام الغزالي ، ومن ثم فلتعلم أن هناك عِلماً بأمر الله وعِلماً بخلق الله ، وآخر بالله .

العلم بأمر الله وبخلق الله يحتاج إلى مدارسة كتابٍ نقرؤه ونحفظه ونفهمه : أي نعيد ونكرر ونتذكر ونكتب ، ثم نؤدي فحصاً ونأخذ شهادة ، فهذه المُدارسة عن طريق الكتاب والقراءة والمراجعة والفهم والتلقي والإلقاء ، وما شاكَلَ ذلك ، هذه المُدارسة تؤدي إلى حفظ المعلومات ، ولكن أين تُحْفَظ ؟ إنها تُحْفَظ في الدماغ ! .

ولكن المُجاهدة ، وغض البصر ، وإنفاق المال ، وبِرّ الوالدين والصدقة النافلة غير الزكاة ، وقيام الليل ، وإتقان الصلوات ، وكثرة الذِّكر وتِلاوة القرآن فهذه اسمُها مجاهدة للنفس وطاعة لله ، ثم إذا عَزَفْتَ عن رحلة لا تُرضي الله وعن حفلة لا تُرضي الله ، وطعام شهي جداً ، ولكن حوله مجتمع اختلاطٍ وقُلت : مَعَاذَ الله ، فهذه هي المُجاهدة للنفس لردها عن سُبل الهوى ، أي : أن تُجاهد نفسك وهَوَاك ، ومن شأنِها أن تصلك بالله ، وإذا اتصلت بالله عز وجل جاءتكَ أنواره وسكينته ، وجاءتك السعادة ، والبصيرة النافذة ، فالإنسان المؤمن شخصية فذة ، أي : يتمتع برؤية صحيحة ، فيرى حقائق الأشياء ، وبواطِنَها ، وما تنطوي عليه وأبعادها الحقيقية وخلفياتها الغائبة عن معظم الناس ، فهذه البصيرة خاصة بالمؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلوبهم النور ، والدليل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

أجل ، هذه خاصّة بالمؤمن ، فإن الله يعطي السكينة أصفياءه المؤمنين بقدره ، والمؤمن شخصية فذة ، وحينما يجاهد نفسه وهواه يأتيه الجواب ، وتأتيه ثمرات جهاده ، وهي نورٌ في قلبه ، وبصيرةٌ نافذة ، فقلبٌ واثق بالله عز وجل ، وكلامٌ سديد ، وتفكيرٌ صحيح ، وموقفٌ متوازن فهو شخصيةٌ واثقة بالله لا تنهار سريعاً ، لأنه حصل على هذه الثِّمار ، وأفاد مما فيها .

ولذلك فمعرفة الله عز وجل طريقها المُجاهدة ، لكن معرفة شرعه أو معرفة خلقه طريقها المُدارسة ، فبين المُدارسة والمُجاهدة بونٌ شاسع ، والمُدارسة لا تُكلّف كثيراً فقد تحتاج إلى طاولة وكتاب وقلم ، وقد تكون أنتَ في واد والكتاب في واد ، ولهذا فقد يأخذ الإنسان أعلى الشهادات وهو غارق في أحط الشهوات ، أما إذا جاهَدَ نفسه وهواه فقد اصطبغ بِصِبغة الله عز وجل ، أي : شَعَرَ في نفسه سمواً وعن شهواته تنائِياً وتصعيداً ، وفي ميولِهِ شرفاً ، وفي تفكيره دقة ، وفي كلامه سداداً ، وفي مواقفه أخلاقاً وشرفاً .

إذاً كل ثمار الدين تأتي من معرفة الله ، ومعرفة الله ثمنها المجاهدة ، فالذي يتمنى أن يعيش هذه الأسماء ، لا أن يعرف مدلولاتها وأحكامها وأبعادها ومعانيها الدقيقة بشكل نظري فقط ، فعليه أن يعيش هذه الأسماء بشكل عملي ، وأحياناً المؤمن يرى يد الله تعمل في الخفاء ، فكل شيء يشاهده أو كل قصة يسمعها أو كل حادث يراه ، إنما يفهمه فهماً من خلال شعوره أن الله يرقبه ويصحبه ، وأن الله خالق كل شيء .

إذاً : أردتُ في خِضَمِّ الحديث عن أسماء الله الحسنى أن أقف وقفة قصيرة حول الجدوى التي تُعلَّق عليها الآمال من معرفة أسماء الله الحسنى ، فالمعلومات النظرية قضية سهلة جداً ، فأي إنسان حتى من غير المسلمين ، بإمكانه أن يقرأ ، ويحفظ ، ويكتب ، ويجيب ويأخذ شهادة بهذا الموضوع ، أما أن تُجاهد نفسك وهواك كي تعقد مع الله صِلة ، فهذه الصِّلة إذا انعقدت أتاك منها كل خير ، ولذلك عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِيء الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِيء الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ** » . [رواه ابن ماجه والبيهقي بسند ضعيف] .

والصلاة طهور . والصلاة حبور . أما أنها طَهور ، فمستحيل أن يحقد المصلي أو يتكبر أو يكون ذا أثرة أو يكون مستعلياً ، وأنا أقول دائماً : للإعراض عن الله أعراض! ومِنْ أعراض الإعراض التكبر ، والعلو والعنجهية والغطرسة وحب الذات ، والدناءَة أحياناً ، وأن تأخذ ما ليس لك ،و أن تتمنى أن تكون فوق الناس جميعاً ، هذه كلها أعراض الإعراض ، فإذا حصل اتصال بالله عز وجل ، عُدتَ إلى حجمك الحقيقي ، حجم العبودية ، وشعرت أن الله عز وجل عليك رقيب ، وأن الله معك ، وفي الحديث الشريف :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : « **الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ** » قَالَ : مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : « **الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ** » قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » . [متفق عليه] .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا نظر في المرآة يقول :

« اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي » . [رواه أحمد] .

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

فإذاً ليشكر الإنسان الله عز وجل على أن أعطاه قَواماً ورأساً فيه سمع وبصر وفم ولسان وأنف ، وهذا الخَلْقُ السوي الكامل من نِعَمِ الله عز وجل كذلك ، حتى إذا جاءه مولود ورآه كامل الخِلْقَة فهذا من فضل الله عز وجل أيضاً ، وهذا هو معنى المصوِّر ، أي جعله صورةً حسنةً .

إذاً : مازلنا في الحديث عن أن معرفة أسماء الله الحسنى من حيث إنها معلومات فهذا وجه ، ومن حيث أن تسعى لأن تعقد صلة مع الله عز وجل وجه آخر ؛ لأنك عندئذ تعيش هذه الأسماء ، وحينما تعيشها تشعر بعظمة هذا الدين ، والإنسان وقته ثمين جداً ، والعُمر لا يحتمل تجارب كثيرة خاطئة ، يروى أن حارثة قال : أنا مؤمن حقاً فقال : « ما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً فقال ﷺ « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان » .

فالإنسان معنيٌّ أن يرى بعينيه أن هذا الكون من خلق الله وأن الله سبحانه وتعالى ربه ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى مُسيّره ، وأنَّ كل شيء وقع أراده الله ، وأن الله عز وجل أراده لحكمة بالغة ، ولو لم يقع الذي وقع لكان نقصاً في الحكمة ، وكان الله سبحانه وتعالى ملوماً من عباده يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

﴿إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص : ٤٧] .

فأسماء الله الثلاثة الخالق والبارىء والمصور ، أسماء متلازمة متآلفة في غايتها تجمع بينها آصرة واحدة هي العلاقة الوشيجة لعملية الخلق ؛ خلقاً وبرءاً وتصويراً ؛ والمصور يعني أن الله عز وجل أعطى كل شيء صورته ، ليس معنى الصورة الشكل الخارجي بل القَوام الكامل : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

فمعنى التصوير يعني أعطاك الشكل الكامل طولاً وعرضاً وارتفاعاً وعمقاً ، فالنملة لها صورة ، والفيل والحوت والإنسان ، وكل مخلوق له صورة ، والله سبحانه وتعالى هو المصور ، يقول الله عز وجل :

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦] .

وهذا من معاني اسم المصوِّر ؛ وأيضاً فهذا الجنين في بطن أمه حينما تشق عيناه ويشق سمعه ، ويُعطى رأسُه حجماً ، وجسمه حجماً وله جلد وأعضاء وحركات ، فهذا من التصوير ، وليس هناك فصل بين الخلق والتصوير إلا فصل نظري ، فالخلق والتصوير يَتِمّان في وقت واحد .

* * *